العدل والإحسان في المجتمعات والدول

عبد الرحمٰن السالمي

عندما يريد الباحثون الإشارة إلى أمرٍ ما بأنه أمر أساسي؛ فإنهم يعبّرون عن ذلك بأنه بنيوي؛ وهكذا، فإنّي أرى أن فضيلتَي العدل والإحسان في القرآن الكريم بنيَوِيّتان. وقد أكّد القرآن الترابط فيما بينهما، وذُكرتا مئات المرات، إما مقترنتان أو منفصلتان، وشرّفتا بأنهما اشتقتا من أسماء الله الحسنى. على أنّ بنيويتهما لا تستند فقط إلى كثرة ذكرهما في القرآن؛ بل ولأنّ القرآن يعطيهما وزناً كبيراً في استقرار المجتمعات واستمرارها أيضا؛ ولذلك فإنه يُوجِّهُ أمراً صريحاً إلى المؤمنين باتّباعهما: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

بدأ الاهتمام بمفردتي العدل والإحسان في تفاسير القرآن الأولى؛ أي في العقود الأولى من القرن الثاني الهجري، فإلى جانب تفاسير الخمسمائة آية (آيات الأحكام)، وغريب القرآن ومجاز القرآن، ظهر نوعٌ تأليفي موازٍ متعلق بالقرآن هو: «علم الوجوه والنظائر». وهو فنٌ يبحث في المفردات التي تتعدد معانيها بتعدد ورودها في

القرآن، وبذلك فهي: «نظائر» أو متماثلة بوصفها مفرداتٍ أو ألفاظاً، لكنّ معانيها مختلفة، ويحاول اللغويون والمفسرون فهم هذا التعدد من خلال السياق الذي تردُ فيه المفردة في المواطن المختلفة بالقرآن. والعدل والإحسان من المفردات التي تتعدد معانيها في كتاب الله. ومرةً أُخرى فليس تقدير الأهمية عائداً لكثرة الذكر وتعدد المعاني فقط؛ بل ولتلك الشبكة الواسعة من المفردات والمفاهيم التي ترتبط بالمفردات النظائر، وتُحوِّل مصفوفة أو منظومة القيم القرآنية إلى شبكة شاسعة الامتداد والدلالات أيضا. فالعدل يكون قسطاً، ويكون إنصافاً، ويكون مساواةً، ويكون ورعاً وتنزّهاً. والإحسان يكون صدقةً، ويكون زكاةً، ويكون عفواً، ويكون زينةً لكل فعلٍ، ويكون صبراً، ويكون ظهيراً للنفوس المطمئنة، وتحليةً بعد التخلية... إلخ. وهكذا فإنهما لدى مفسري القرآن ولدى مجتمعات المسلمين وفي ثقافتهم عالَمان مترابطان من الفضائل والمآثر ومحاسن التفكير والسلوك، وهما ينضمان إلى مفرداتٍ ومصطلحاتٍ أخرى تحمل دلالات متقاربة أو متباعدة؛ لكنها تنتمي جميعاً ـ كما سبق ذكره ـ إلى منظومة القيم والفضائل التي يدعو القرآن المؤمنين للسير فيها، من مثل العدل والرحمة والمعروف والتعارف والخير العام. هل هي مترادفات؟ أو مزدوجات؟ لا، ليست هذا ولا ذاك، بل هي تعبيرات متمايزة قليلاً أو كثيراً عن حالات لا تكاد تتناهى، ويستطيع الإنسان السير فيها من الأدنى إلى الأعلى في كلٍّ منها. إنه عالم الدرجات وعالم السموّ.

عندما كان العلماء يتصدون لإقامة علوم القرآن؛ قسّموا تلك العلوم إلى علومِ مقاصد وعلومِ وسائلَ، فعلوم الوسائل أكثرها علومٌ لغويةٌ تُعين على الفهم والتفسير، كما أنها تتيح ـ استناداً إلى المعاني والسياسات ـ ترتيب المنظومة القيمية في القرآن الكريم.

ونصل إلى المقاصد والوظائف للقيم، كل قيمةٍ على حدة، ثم للمنظومة كلها، وفي مقدمتها القيم الثلاث: العدل والإحسان والرحمة، أو الرحمة والإحسان والعدل. ويشمل العدل التفكير أو التوجّه، كما يشمل العمل، فهو

عملٌ من أعمال الفكر والسلوك في الوقت نفسه، وهو يقترن بالإحسان بوصفه تصعيداً للعدل في الفكر والسلوك أيضاً. فإذا كان العدل يقتضي ـ مثلاً في حال الإساءة ـ ألا تزيد العقوبة على الارتكاب بل أن تتساوى معه؛ فإنّ الإحسان يقتضي العفو؛ ذلك أنّ العفو بين المسلمين ومع الناس يبعث شعوراً بالامتنان، ويدفع باتجاه الشعور بالندم والتوبة. وهو يبدأ بين الأفراد، ويمكن أن يتحول إلى سِمةٍ كبرى من السمات الاجتماعية، فقد قال صلواتُ اللّه وسلامه عليه: «**إنما بُعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق**». والمتعارف عليه بين الناس أنّ الإحسان هو التصدّق على الفقراء؛ لكنه بوصفه مصطلحاً قرآنياً يزيد على ذلك أو يتطلب أعلى من ذلك؛ فهو يشمل كل تفوقٍ في التفكير والقول والعمل، والتفوق لا يعني الراديكالية في هذا الاتجاه أو ذاك، بل يعني ما عناه رسول اللّه ﷺ بإتمام مكارم الأخلاق. ويظهر ذلك عندما يستقل المصطلح فلا يُذكَرُ مع العدل بل يرد منفرداً وبمختلف الصيغ، من مثل قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26]. إنّ الملحوظ هنا الحديث بصيغة الجمع: «**الذين أحسنوا**»، وهذا يعني أنه كما أن العدل سِمة اجتماعية، يُخاطَبُ به ـ في العادة ـ أولو الأمر أو السلطة القضائية؛ وذلك لأنّ العدل من الولايات؛ فإنّ الإحسان ـ رغم أنه ليس من الولايات، بل هو عملٌ للأفراد ـ يمكن ـ بالهمة والصلاح والدعوة والقدوة الصالحة ـ أن يصبح خصلةً اجتماعيةً، يرفع رايتها ويحمل لواءَها فئةٌ من المجتمع أو فئات. فالفرقُ بين مجتمع الإحسان ومجتمع الخير أن الثاني يمكن أن يُطلق عليه ذلك لغَلَبة الحال والحالة، أما الأول ـ أي مجتمع الإحسان ـ فإنه يطلق عليه ذلك لوجود فئةٍ قويةٍ أو فئات صاحبة رسالة خاصة تتعلّق بالإحسان والإتقان والتفوق في عمل البر والمسارعة بالخيرات. إنّ التقدم في الإحسان من جانب أُناسٍ أصحاب رسالة في الإتقان في الفكر والقول والعمل والإبداع يُطوِّر المجتمع ويحوِّلُهُ إلى مجتمع خير. وهو المجتمع الذي يطالب القرآن أفراده وفئاته بأن يستبقوا الخيرات؛ أي أن يبادروا إليها ويتنافسوا عليها. والخيرات جمع خير، لكنّ الإحسان والحُسنى اسما جنس. أما الحَسَنة ـ وهي جزئيةٌ في عمل الخير والإحسان ـ فجمعُها حسنات: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: 114].

وكما سبق القول فإنّ الحسنة مثل الإحسان في الأصل عملٌ فردي؛ لكنّ «الحسنات» (وليس الحَسَنة) هي التي تُذهبُ السيئات؛ فلكي يحصل ذلك في المجتمع فتتضاءل الفواحش وأعمال السوء، فإنّ أعمال الإحسان الآتية من جماعاتٍ ينبغي أن تتحول إلى ظواهر اجتماعيةٍ، وفضائل تُصبح سمةً غالبةً وإن لم يتّسم بها كلُّ أفراد المجتمع.

ولنمضِ من المجتمع إلى الدولة؛ فالسلطة في مجتمع الإحسان تتّسم بسمات المجتمع نفسه أو العكس؛ فقد شاع في كتابات المؤرخين وكُتّاب الأخلاقيات الحديثُ عن مشاكلة الناس لزمانهم، وفي الأثر: «كما تكونون يُولّى عليكم». وفي بلاد ذات مجتمع عملٍ وجدية لا يفترق الحاكم عن المحكوم في الوعي بأداء الواجب، وبضرورات الإتقان في العمل، والمصير إلى التضامن الاجتماعي والتساند في النوائب وفي النجاحات. وفي الجملة فإنّ مجتمع الإحسان يؤثّر في مراتب السلطة، ويُوصلُ إليها أُناساً أفاضل يشاركون ويؤثّرون ويصنعون الفرق. كما أنّ السلطة المحسنة والصالحة (وقد شاعت تسمية الحكم الصالح والرشيد) تنتشر ليس بالأمر؛ بل بالقدوة الحسنة، وتشجيع مبادرات الإحسان والخير، قيماً وعاداتٍ فاضلة. وهذا ما قاله اليعقوبي في جزئه: «مشاكلة الناس لزمانهم»، وما قيل عن خلافة عمر بن عبد العزيز؛ فقد بلغ من استتباب مجتمع الإحسان في عهده أنه ما بقي للناس حاجةٌ مُلِحّة دون أن تُقضى وتُلبّى، وسادت حالةٌ من التعفف لدرجة أن المتصدق ربما أعياه البحث عن السائلين.

إنّ فضيلتَي أو قيمتَي العدل والإحسان يمكن أن يكون لهما شريك ثالثٌ، وهو قيمة الرحمة أو قيمة المعروف والتعارُف، والصلة بين العدل والإحسان والتعارف في منتهى المباشرة والوضوح؛ وذلك لأنّ التعارف صلةٌ واعترافٌ بالآخر، والعدل والإحسان يحتاجان إلى آخر في المجتمع والدولة للقيام بهما.

إنّ ثنائية العدل والإحسان ـ التي يذكرها القرآن الكريم ويحثّ عليها ـ تتضمن نهجاً إصلاحياً للمجتمع والدولة لا ينبغي تجاهُلُهُ أو التردُّد في اتباعه.